الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة –
كلية الشريعة والاقتصاد
قسم الفقه وأصوله
الملتقى الدولي حول: "المدينة والتطور العمراني في ضوء فقه العمران والاجتماع البشري"، المنظم من طرف الكلية بالتنسيق مع قسم الفقه وأصوله، والمنعقد يومي الأربعاء والخميس 24 و25 شعبان 1442هـ الموافق 07 و08 أفريل 2021م

دور الوقف الحضاري وأهميته في التركيبة العمرانية للمدن وكيانها، من خلال مساهمته في ذلك عبر التاريخ الإسلامي.

ط.د أحمـــــد فرفا
جامعة الجزائر 1 كلية العلوم الإسلامية خروبة

ملخص:

لقد كان للوقف دوراً بارزاً في حياة الناس ردحاً من الزمن، استطاع من خلاله التأثير على مختلف جوانب في الحياة ونواحيها، المادية والسياسية والدينية والاجتماعية، وكان يُشكل أحد دعائم المجتمع الإسلامي من خلال البناء والمساهمة للنهوض بحاجات الناس ومتطلباتهم الضرورية، مما أسهم في حفظ ورقي المجتمع الإسلامي من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، ناهيك عن التلاحم والتعاون والتنظيم وكل الأشكال التضامنية التي ظهرت تجلياتها بشكلٍ واضحٍ وعلى نطاق واسع من رقعة الدول الإسلامية في ذلك الوقت، فهو بمثابة مكسب حضاري متجدر في التاريخ الإسلامي المحض، وذلك لما كان له من امتداد لأثره عبر الزمن في استمرار عطائه لمختلف الأجيال، وما لعبه وما يزال يُقدّمه من تنمية اجتماعية واقتصادية كان ذلك ثمرة اسهامات مختلفة شهدها قطاع الأوقاف حيث عرف الوقف تطوراً واقبالاً كبيراً، كما كانت له مزايا عديدة وتأثير واضح على الوضع الاجتماعي والبنية التحتية للمدن الإسلامية ، مثل عمارة الوقف وتوجيه غلاته ومنافعه لجوانب مختلفة في حياة الناس، ونستطيع القول أن الوقف قد غطّى جانباً كبيراً من الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، من خلال ما كان يتميز به سيما في ظل التكوين البسيط للمجتمع القديم، كل هذا شكّل نظاماً اجتماعياً إسلامياً متكاملاً، فكان بحق مرتكزاً حضارياً بالنسبة للمجتمع في الماضي والحاضر.

الكلمات المفتاحية: الوقف الإسلامي ـ المباني الوقفية ـ التكافل ـ العمران ـ الحضارة.

Abstract:

For a long time, waqf played a great role in people's lives in that it could impact on all life domains: material, political, religious and social. It has constituted a pillar for the Islamic society through construction and taking part in the satisfaction of people' s vital needs; thus, contributing for the preservation and prosperity of the Islamic society : socially and politically; besides cohesion, cooperation and all aspects of solidarity that were apparent in the Islamic region at that time. This is considered a civilizational gain deeply rooted in the Islamic history due to its spacious influence in all that it provides several generations So that; the Islamic system was the best in organizing people' s lives that helped them develop in all domains. On an other hand, waqf financing participated in extending the charitable developing projects through the waqf strategic initiatives to establish financing investment projects to improve the social and economic goals of waqf. These initiatives should be appreciated and encouraged for the service of society at present and future.

Keywords: Islamic waqf – Buildings waqf – civilization – Symbiosis - Urbanization.

مقدمـــــــة

يُعتبر الوقف من أجلّ القربات التي يتقرب بها العبد إلى الله وندب الشرع إليها، وبها ينال الثواب والأجر في الدنيا ويستمر به ذلك إلى دار الآخرة، وقد جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" من مات انقطع عمله إلاّ من ثلاث، صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له"[1]، ولا شك أن الوقف يدخل ضمن الصدقة الجارية التي تعود على صاحبها بحسن الثواب والأجر الجزيل، المستمر بعد انقضاء أجله، وأي عمل يحبسه المرء أو يتصدق به على أوجه البر ينال به الأجر على قدر كل جزء

[1] أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم 1631، ص 886.

ينفقه من ماله أو ملكه، فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال النبي صلى الله عليه وسلم:" من احتبس فرساً في سبيب الله ايماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شعبه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة".[2]

يقول الدكتور الريسوني:" أن الوقف بمبادئه وأحكامه، وبدوره التاريخي الكبير، وبإسهاماته الضخمة في بناء المجتمع الإسلامي وترقيته وتقويته وتمدينه، يُعتبر رصيدا دينياً وحضاريا هائلاً، يمكن الاعتماد عليه في تحسين أوضاع المسلمين اليوم، والإسهام الفعال في معركة التنمية والنهضة. ولكن يحتاج إلى عناية ورعاية و إلى تطوير و تميكن، لكي يأخذ الوقف مكانته و يستأنف رسالته على نحو أوسع وأنجع مما هو عليه الآن"[3]فلوقف له أهمية كبرى كونه يشمل مناحي عديدة من معاش الناس وحياتهم، حيث كان له الدور الريادي في البناء الحضاري من التطور والتقدم والنمو قديما، وإذا جئنا نستقصي التاريخ الإسلامي نجد أن الوقف قد ساهم بشكل كبير و فعّال في التحسين من حياة المجتمع الاجتماعية والاقتصادية، ناهيك عن مساهمته الكبرى في المجال العلمي كدعم الكتاتيب والزوايا، إضافة إلى مجال التعمير والمدينة بفعل الأبنية الوقفية، وقد تكلم وعلّق الفقهاء على ذلك في أحكامهم، وقد انتشرت ثقافة الوقف لدى المجتمع فكان من بين العوامل التي ساعدت في ازدهار المجتمع الإسلامي والتكامل الذي خلقه بين فئات المجتمع،" ومن خلال ما دلّت عليه الدراسات التاريخية أن الوقف لم يتوقف حتى في عصور الانحطاط والتمزق، بل كان في تزايد مستمر، وذلك بسبب اقبال المسلمين على تحبيس الثروات والتنافس في الخيرات، مما كشف عن أهمية تراكم الثروة الوقفية عبر العصور، حيث ما انفكت تزداد في حالات عديدة"[4]، كما أنه ساهم في ازدهار الأمة وتطورها فكان ركيزة من ركائز التنمية وعامل من عوامل الحضارة الإسلامية، وبالتالي فهو له علاقة كبيرة في مجال النهوض بالمدينة والعمران وكذا المحافظة على الأصالة والهوية لمختلف المدن الإسلامية التي انتشر فيها، وذلك من خلال المساجد التي كانت تُبنى بفعل الأوقاف والمساهمات والمدارس القرآنية، ودار الأيتام وكذلك مختلف العقارات التي تم تشييدها لصالح النفع العام ومن خلال عائدات الوقف، وهي بذلك تُشكل إضافة كبيرة للمدن وتُساهم في التنظيم الفضائي والعمراني لها.

ومن هنا ارتأيت أن أقدم مداخلة تتضمن أهمية الوقف ودوره في المحافظة على التركيبة العمرانية والأصالة في المدن وهي تتمسك ببنيانها وتشكيلها الحضاري والتنظيمي، والمعالم الكبرى لمختلف جوانب الحياة فيها رغم قدمها وتجذرها في التاريخ.

---

[2]أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من احتبس فرساً في سبيل الله، تحت رقم 2853، ج4، ص 28.

[1]المصدر السابق67.

[4]د.نور الدين زمام – د. نجاة يحياوي، الوقف والتنمية المستدامة، بحث مقدم للمؤتمر الدولي للوقف بعنوان: الوقف الإسلامي والتنمية المستدامة، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة ـ الجزائر ص 45.

فيقودنا إلى طرح الإشكال التالي: ما هو دور الوقف الحضاري وأهميته في التركيبة العمرانية للمدن وتشكيلتها من خلال مساهمته في ذلك.

ـ سأحاول من خلال المداخلة دراسة والإجابة عن أسئلة تتعلق بأبعاد الوقف وأهميته في الجانب العمراني للمدن من خلال نقاط تتعلق ب:

ـ ما هي الإضافات التي قدّمها الوقف للحضارة الإسلامية من خلال ما تم إنشاؤه أو حبسه من العمران والعقارات الوقفية، كالمساجد، والبنايات التي شُيدت لدار الأيتام أو عابري السبيل، والتكايا (الزوايا والمدارس القرآنية)؟

ـ كيف كانت إسهامات الوقف في المدن والتأثير الإيجابي على الشكل العمراني لها، من حث الخصوصيات في ذلك، والمميزات المتعلقة بكل العمران التابع للأوقاف.

ـ ما هي مظاهر التأثير الحضاري للوقف على المدن الإسلامية فيما يتعلق بالشكل والنسيج العمراني للمباني والمنشآت؟

ـ أهمية الموضوع:

لا شك أن الوقف يُمثل جانباً حضارياً عبر التاريخ الإسلامي، كيف لا وقد ساهم وبشكلٍ كبيرٍ في الحفاظ على هوية المجتمع الإسلامي وتماسكه، وأعطى إضافة كبرى لمعالم المدن والعمران في العالم الإسلامي، من خلال مختلف المرافق التابعة للأوقاف، منها الأراضي الزراعية، العقارات، المساجد بلا تعداد، التكايا (الزوايا القرآنية)، والأبنية الوقفية الموجهة لمختلف طبقات المجتمع المعوزة (دور اليتامى والأرامل، عابري السبيل، الشيوخ كبار السن، وغيرهم.)، فكانت هذه الأبنية والعقارات تُمثل جانباً مهماً في حياة المجتمع الاجتماعية والدينية، وتُساهم في إعمار المدن وتنمية مختلف مرافقها الحيوية.

ـ منهج البحث:

قسمت البحث إلى مبحثين، وكل مبحث منهما يحوي على ثلاثة مطالب:

حاولت أن أتطرق في كلا المبحثين إلى الإجابة عن الإشكال والأسئلة المطروحة في المقدمة، ووصلت إلى بعض النتائج، وأرفقتها ببعض التوصيات الهامّة للرّقي بالمؤسسة الوقفية وتفعيل دورها بشكل أفضل

طبيعة الموضوع تستوجب الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، وهو باعتقادي الأنسب لهذه الدراسة، من خلال تحليل المعلومات المتعلقة بنظام الوقف الإسلامية، وإعطاء صورة عن هذا القطاع ودوره في التنمية العمرانية والرفع من مكانة المجتمع الإسلامي، بالمنشآت والمباني التي كان لها دور كبير في المدن الإسلامية، من حيث إنشائها وعمارتها والجوانب الحياتية في أبعادها ومجالاتها المختلفة.

.

المبحث الأول: التعريف بالوقف وأبعاده الدينية والاجتماعية في الجانب العمراني والبشري.

المطلب الأول: التعريف بالوقف:

(حبس) الحاء والباء والسين. يقال حبسته حبسا. والحبس: ما وقف. يقال أحبست فرسا في سبيل الله. والحبس: مصنعة للماء، والجمع أحباس. مقاييس اللغة 128/2

(وقف) الدار للمساكين وبابهما وعد أيضا. مختار الصحاح 1/

التعريف الاصطلاحي الشرعي للوقف: عرفه ابن عرفة بقوله:" إعطاءُ منفعةِ شَيءٍ مدةَ وجودهِ لازِماً بقاؤهُ في مِلكِ مُعطيهِ ولوْ تقديراً "[5].

أما التعريف الفقهي القريب من الأصل والذي جُمعت فيه ألفاظ من الحديث النبوي هو تعريف موقف الدين ابن قدامة المقدسي رحمه الله بقوله" تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة ".

وهو مأخوذ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه" احْبِسْ أَصْلَهَا وَسَبِّلْ ثَمَرَتَهَا".[6]

نشأ الوقف في الإسلام أوّل الأمر في المدينة المنورة، في هد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين كان صلى الله عليه وسلم أول من أوقف وقفاً، كما أمر الصحابة به، والذين ما لبثوا أن تسابقوا في وقف الأوقاف بأوجه متعددة شملت كل جوانب الحياة تقريباً، ورغم أن الوقف لم ينزل به نص صريح في القرآن الكريم، باستثناء بعض الآيات التي تدعوا إلى الإنفاق والبر والتحفيز على الصدقة والبذل، إلّا أنه، ونتيجة لفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم للوقف، أصبح الوقف منذ ذلك الوقت من القربات التي يتقرب بها الناس إلى الله سبحانه وتعالى، بل أصبح من العوامل التي تُساعد على استقرار الأنظمة السياسية والاجتماعية في المدينة الإسلامية، المساعد على ازدهار الشكل العمراني والمرافق التابعة لها.

ويمكن القول أن مفهوم الوقف بدأ بالظهور منذ عهد الصحابة نظراً للتوسع في تطبيقاته، وكان أغلب الوقف من الأراضي والبساتين والنخيل والآبار في المدينة ومكة ثم الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان التي انتقل إليها الصحابة بالفتوح، وقد روي عن الصحابي جابر بن عبد الله: لا أعلم أحدا كان له مال من المهاجرين والأنصار إّلا حبس مالا من ماله صدقة مؤبدة لا تشترى ولا تُوهب ولا تُرث، ولعل الخليفة عمر بن الخطاب ساهم بشكل فعّال في التطبيق الوقفي عندما رأى عدم توزيع الأراضي الزراعية في البلاد المفتوحة على المجاهدين وجعلها وقفاً على الأمة بكاملها للصرف على مصالحها.

---

[5]شرح حدود ابن عرفة للرصاع، تحقيق محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م، ج2، ص 539.

[6]المغني، موفق الدين ابن قدامة، مكتبة القاهرة، ج6 ص3.

العمران هو: كل ما تشمله البيئة من منشآت ومرافق يُشيدها الإنسان، مثل المباني والمرافق العامة (مثل الطرقات، والترع، والحدائق، الدور، الحمامات، وغيرها).

والعمران كل ما يتعلق بالاجتماع الإنساني، سواء في صورته الفردية أو الاجتماعية العامة، أو الاجتماعية في جوانبها السياسية.

ويعود الفضل في تأسيس هذا اللون من العلوم إلى العالم المسلم عبد الرحمن بن خلدون، الذي وضع أسس علم الاجتماع، وقواعده ومن بينها قوانين العمران البشري، وهو أحد أركان الحضارة الإنسانية، وهو في نفس الوقت يُعرِّف الحضارة على أنها:" نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر والبعد عن الخير، فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً كذلك؛ لأنه غاية لا مزيد وراءها ومن بين العوامل المساهمة في تنوعه وتمدنه، الوقف الإسلامي بنظامه الحضاري الرصين.

و"المدينة": بالمعنى العمراني أو الاستيطاني، ويُقابله مصطلح " city" في اللغة اللاتينية، وهو مصطلح يعني وجود تجمُّع بشريٍّ ذي خصائص معينة، في نمط معيشته وعلاقته الاجتماعية، ذات الكثافة السكانية، وكذلك أنشطته الاقتصادية والبشرية العامة.[7]

يُعدُّ الوقف نظاماً إسلامياً، نشأ وتطور في ظل الحضارة الإسلامية، وقد شهدت الأوقاف عبر العصور الإسلاميَة نموّاً واسعاً وتطوُّراً، إذا لم يقتصر على العناية بفئات المجتمع فحسب، وإنما جاوزتها إلى الاهتمام والعناية بكل ما يعتمد عليه الناس في حياتهم اليومية، كاستصلاح الأراضي الزراعية الموقوفة، والدور والأبنية الوقفية، والمساجد، والمدارس التعلمية،..إلخ، وقد انتشر الوقف ليُغطي مختلف جوانب الحياة، ومن جميع النواحي، فتزايد عدد المساجد، وتزايد الاهتمام بتحسين أوضاعها والمرافق التابعة لها، وفي المجال الاجتماعي، ساعد الوقف المحتاجين واليتامى والمقعدين، فكانت هناك دور ومأوى لهؤلاء لشرائح المجتمع.

ثم إن الوقف صدقة، أفرده فقهاء بالحديث، لأن له ميزات خاصة تُميزه عن مطلق الصدقة. هه الميزات جعلت منه صدقة أكثر نفعاً وأدوم فائدة من باقي الصدقات.

حيث لعبت الأوقاف دوراً مهماً في حياة المدن، وانتشرت انتشاراً ملحوظاً، وأصبح للوقف دور واضحاً في عمران المدن الإسلامية مع بداية القرن السادس الهجري بشكلٍ خاص، واستمر بعد ذلك حتى كان من المؤثرات التي دفعت إلى تطور عمران المدينة الإسلامية، وأثر فيها تأثيراً واضحاً من حيث معالمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية"[8].

---

[7] أحمد التلاوي، الدولة والعمران في الإسلام، مركز الإعلام العربي، مصر، ط1، 1436 هـ - 2015م، ص 144.

[8] محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 128، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، 1988م، ص 79.

فلم يترك الوقف مجالاً من المجالات الحياتية إلّا وكان له فيها أثر كبير، فالعلاقة بين الوقف والعمران تكاد تكون مباشرة، من جهة بناء المباني وتشييد المنشآت من جانب الوقف، فكانت نهضة العمران بنهضة الوقف

ومن جهة أخرى فإن مؤسسة الوقف الاعتبارية العامة والتي تنوعت مرافقها منذ ظهورها بمرافقها الجوارية الخدمية والاقتصادية والثقافية.. كالمساجد والفنادق والمزارع والمحلات التجارية...وإن الناظر في تمركز هذه المرافق الوقفية العامة والخاصة يجدها جزءاً مكملاً لمجموع المرافق العامة والخاصة والتي تُنظمها قوانين الدولة التي أُنشئت على أراضيها"[9]، ومن هنا اتسعت رقعت المدن وتكوينها بحكم النشاطات الاجتماعية والاقتصادية للأوقاف، وهي تُعطي معالم التطور العمراني وتُحدد طبيعة العلاقة بين مؤسسة الوقف عموماً والدولة

المطب الثاني: وأهميته وأبعاده الوقف في الجانب العمراني للمدن.

ارتباط الوقف بالجانب الخيري والصدقة الجارية جعله يأخذ أبعاداً مختلفةً زيادةً على ارتباطه بالجانب الديني، فقد كانت له أغراض مختلفة تربطه بالمجتمع الإسلامي، الدينية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية والثقافية، فلم يكن الوقف مقتصراً على جانبٍ معينٍ وحسب، فمفهوم الوقف كان واسعاً وشاملاً لكل ما من شأنه أن يُساهم في ازدهار المجتمع والمدن الإسلامية، لذلك فقد عُرِف الوقف كجانب حضاري ومكسب ديني يُساعد على تطوير وازدهار الجوانب الحياتية، حيث حرص على تطوير العمران والمنشآت والمدن وكان له النصيب الأكبر في تكوين المدن الإسلامية، بفعل الأوقاف التي كانت بكثرة في تلك الحقب الزمنية، وبفعل كذلك اهتمام الواقفين بهذا الجانب، حيث كان لهم الحرص الكبير والاهتمام الواسع بالمباني والمنشآت الموقوفة وعمارتها مما جعل مثل هذه المنشآت والعمران تستمر لفترات طويلة، بل وجعل بناء تلك المنشآت والمباني وبعضها باقياً لحد الآن،" ومن الجدير بالذكر أن دور الوقف لم يقتصر على وقف المباني والمنشآت من أجل أداء وظائفها المختلفة، بل امتد إلى تحديد كيفية أداء تلك الوظائف، وتوفير الأجهزة والمعدات، وكذلك من خلال شروط الواقفين التي تضمنتها وثائق الأوقاف المتعلقة والمحددة بكيفية إنشاء المباني ومختلف المنشآت الوقفية، حتى يكون لها التأثير الكبير والإضافة الفعلية في كيان المدن ومرافقها وما يتعلق بها.

ولم يكن للوقف أن ينتشر ويتوسع بهذا الحجم والأداء دون أن يكون له هذه المكانة الكبيرة في نفوس المسلمين، فالوقف من حيث الانتشار والأهمية لم يوجد له مثيل في الدول غير الإسلامية، وقد كان ظهوره نتيجة روح التعاون والتراحم التي انتشرت في المجتمعات الإسلامية، "فالوقف يُعتبر نوع من

[9] د. عبد القادر بن عزوز، منتدى قضايا الوقف الفقهية الخامس، اسطنبول ـ تركيا، 1432 هـ ـ 2011م، ص2.

الاقتصاد لكنه مناقض للقوانين الطبيعية للاقتصاد، بحكم أن بواعثه هي إنسانية روحية محضة، وهو ممارسة إسلامية صحيحة"[10].

ومن الواضح أن أكثر من نصف الأوقاف قد تم رصده لتنمية الإنسان روحياً وعلمياً وسلوكياً، والباقي لتلبية الاحتياجات المادية للإنسان، على وجه المواساة والمؤاخاة والرفق والإحسان"[11].

ولم يكن الوقف قاصراً على الصرف لجهة الفقراء والمساكين، بل كان منتشراً بمفاهيم جعلت تنوع الخدمات فيه يشمل كل الجوانب العمومية أذاك، بحيث أصبح الوقف يُشكل الممول الرئيسي للمجتمع الأهلي، ونتيجة لدخول أعداد كثيرة من المباني السكنية والتجارية في حوزة الأوقاف في مختلف المدن، ساهم هذا الأمر في تطوير الفقه الوقفي وتأصيل مسائله المتنوعة، حيث أنه استقل بالبحث وأفرد في مؤلفات خاصة به اعتباراً من القرن الثالث عندما صنف أبو بكر الخصاف كتابه أحكام الوقف[12].

وقد نتج عن ذلك عن ذلك التنوع الكبير في أغراض الوقف إنشاء الكثير من المباني والعقارات التي تُقدم خدماتها للمجتمع والتي تُوصف بالعقارات الموقوفة بحكم خضوعها لنظام الوقف، وهذا هو الازدهار الحضاري للوقف من خلال الخدمة الخيرية المجتمعية المحضة، التي.

وقد ساعد على ارتفاع القيمة الإنتاجية لكثير من الأوقاف المتراكمة التي أنشئت عبر العصور، من خلال التطور الكبير في تكنولوجيا البناء الذي جعل التوسع العمودي في المباني ممكناً، مما زاد كثيراً في القيمة التبادلية للأراضي الموقوفة في المدن.

كل ذلك أدى إلى التطلُّع إلى إعادة تشكيل بعض الأموال الوقفية المباشرة؛ كالمساجد، والمساكن، بحيث يُنقَض البناء القديم ويُبنى بدلاً منه بناء متعدد الأدوار، يُستعمل واحداً منها مسجداً أو مسكناً للموقوف عليهم، ويُستغل الباقي استغلالاً استثمارياً يعود نفعه على غرض الوقف نفسه. وهذا أمر حدث فعلاً في كثير من العواصم الإسلامية؛ مثل: مكة المكرّمة، والقاهرة، وساهم هذا في التطور العمراني والتأثير الإيجابي على الاجتماع البشري، اجتماعياً ودينياً.[13]

وإذا رجعنا إلى حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه السابق، نجد أن الشارع الحكيم توخى من تشريع الوقف مصالح دنيوية وأخروية، تعود على الواقف والموقوف عليه على السواء

---

[10]علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، (ترجمة محمد يوسف عدس، دار الشروق، القاهرة ـ القاهرة، 2013)، ص 284.

[11]الوقف الإسلامي، مجالاته و أبعاده، أحمد الريسوني، دار الكلمة للنشر والتوزيع القاهرة – مصر، ص64.

[12] أمل شفيق محمد العاصي، مباني الأوقاف الإسلامية وأثرها في استدامة الأنسجة الحضرية للمدجن التاريخية/ دراسة حالة: البلدة القديمة من مدينة نابلس، رسالة ماجستير ـ جامعة النجاح ـ كلية الدراسات العليا، 2010، ص 42.

[13]أحمد محمد عبد العظيم الجمل، دور نظام الوقف الإسلامي في التنمية الاقتصادية المعاصرة، دار السلام، القاهرة ـ مصر، ط1، 1428هـ ـ 2007م، ص 129.

المطلب الثالث: الإضافات التي قدّمها الوقف للحضارة الإسلامية من خلال ما تم إنشاؤه أو حبسه من العمران والمباني.

لقد أثر الاهتمام بالمباني والمنشآت من طرف الوقف دور كبير في التنوع العمراني والتركيبة المختلفة للمرافق الحيوية في المدن الإسلامية، فشملت أنواعاً عديدةً من المباني والأنشطة الحياتية، فمن المساكن إلى المساجد، ومن المدارس والجامعات والكتاتيب إلى المباني التجارية والصناعية، ومن الأسبلة والسقايات والعيون والآبار إلى الترع والجسور والقناطر وبناء السفن، ومن المستشفيات والصيدليات إلى المباني العسكرية، ومن المرافق العامة كالطرق والحمامات إلى مباني المؤسسات والخدمات الاجتماعية...وهكذا، فكان هناك تأثير واضح للمنشآت الوقفية على كيان المدن الإسلامية، والعلاقة المتنوعة والمختلفة بينها، والتي ساهم الوقف في ازدهارها"[14].

مساهمة الوقف في سد حاجات الأفراد في شتى المجالات (الصحة والتعليم ومساندة الفقراء، وغيرها من وجوه الخير التي يتّسع نظام الوقف لتغطيتها في خدمة المجتمع وتحقيق مصالحه، ذلك الذي انعكس بشكلٍ إيجابي على الهيكل التنظيمي للمجتمع بما فيه التطور العمراني، والفضاءات التي أحدثها النشاط الوقفي وهو يدفع بعجلة التنمية كوسيلة تخدم المجتمع بأسره، مما أثر على المحيط العمراني للمدن والمرافق والأصول الوقفية التابعة لها، باعتبارها تمس كل جوانب الحياة العلمية والدينية والاجتماعية والاقتصادية.

يقول الدكتور الريسوني:" أن الوقف بمبادئه و أحكامه، وبدوره التاريخي الكبير، وبإسهاماته الضخمة في بناء المجتمع الإسلامي وترقيته وتقويته وتمدينه، يُعتبر رصيدا دينياً وحضاريا هائلاً، يمكن الاعتماد عليه في تحسين أوضاع المسلمين اليوم، والإسهام الفعال في معركة التنمية والنهضة"[15].

ومن جانب آخر فإن الأعيان الوقفية التي كانت تابعة للوقف، يتم تعزيزها وترميمها من خلال حثِّ المقتدرين للمساهمة في صيانتها من أجل استقرار نمو العمل الوقفي والنفقات، في سبيل المحافظة عليه لاستمرار ريعه، هذا كله كان يُساهم بشكلٍ مباشٍ في تهيئة المرافق العمومية داخل المدن، ولعلَّ هذا التعدد المختلف للأوقاف يظهر بشكلٍ واضحٍ وبارزٍ في التركيبة العمرانية والسكَّانية إضافة إلى الخدمات الأخرى المرتبطة بالأوقاف، كالأبنية المتصلة بالمساجد والدور التي يتم تشييدها من عوائد الوقف في مناطق جغرافية مختلفة من المدينة، ومن ثم تكون وقفاً لمختلف فئات المجتمع المعوزة، لاسيما في الوقف المؤبد، وقد قال الأحناف بصحة وقف المنقول إذا كان تابعاً للأرض، كالبناء والأثاث والشجر، أو جرى بع العرف، أو ورد الأثر بوقفه. لذلك يُعلق الشيخ الزرقا على معنى التأبيد فيقول:" إن شرط التأبيد، فيعيد تعريفه بقوله يعود في الحقيقة إلى شرائط الجهة الموقوف عليها لأن الدوام وعدمه إنما هما من

---

[14] د. نوبي محمد حسن، الوقف والعمران الإسلامي، دار النشر العلمي والمطابع ـ جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1432 هـ ـ 2010م، ص 5

[15] الوقف الإسلامي، مجالاته وأبعاده، أحمد الريسوني، دار الكلمة للنشر والتوزيع القاهرة – مصر، ص 67.

أحوالها، وليس معنى تأبيد الوقف إلا دوام الموقوف عليه"[16]ولا شك أن هذا الإرث سيكون له انعكاساً كبيراً على المستوى البنياني للمدينة ويُحسن من منظرها وصورتها.

يقول العلّامة الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (محاضرات في الوقف): " وأن الوقف الذي يكون فيه حبس العين على حكم الله تعالى والتصدق بالثمرة على جهة من جهات البر، هو نوع من الصدقات الجارية بعد وفاة المتصدق، يعم خيرها يكثر برها، وتتظافر بها الجماعات في مد ذوي الحاجات، وإقامة المعالم، وإنشاء دور الخير من مستشفى جامع يطب أدواء الناس، ونزل يؤوي أبناء السبيل، وملاجئ تؤوي اليتامى، وتقي الأحداث شر الضياع، فيكونوا قوة عاملة، ولا يكونوا قوة هادمة[17].

المبحث الثاني: إسهامات الوقف في المدن وكيانها، والتأثير الإيجابي على الشكل العمراني، والخصوصيات في ذلك.

يُعتبر فقه العمران من أهم المباحث التي تُعنى بالجانب الإسلامي الحضاري من خلال الإطار التكويني للجوانب العمرانية، بما يتعلق بها من خصوصيات وطابع ديني يُعبر عن أصالة المدن الإسلامية المتجدرة في التاريخ، وإسهامات الوقف الإسلامي في ذلك، كيف لا وهو من بين أسباب قيام أهم المنشآت والمباني في هذا الجانب، وما أضافه من تنوع المرافق في مختلف نواحي الحياة بالنسبة للمدن والعمران بصفة عامة، وهو يُعبر في نفس الوقت عن العلاقة الطردية بين الوقف والعمران، والتأثير الإيجابي على الصبغة العمرانية والاجتماع البشري في ظل التكامل الذي خلقه الوقف داخل معالم المدن الإسلامية

المطلب الأول: إسهامات الوقف في ازدهار المدن من خلال الارتقاء بكيانها وتنوع مرافقها:

من خلال تلك المدارس والجامعات العملاقة، وكذلك المكتبات والمستشفيات، التي قامت وازدهرت في الماضي على أموال الوقف مثل الجامع الأزهر وغيره، فقد كان ظاهرة اقتصادية واجتماعية كانت لها بصماتها الإيجابية البارزة في نهضة العالم الإسلامي فكان للوقف دور كبير في التطور العمراني والتنوع الذي عرفته المدن الإسلامية بفضل انتشار الأوقاف ومن أهم تلك الجوانب:

1 ـ كثرة الأوقاف ساهمت في ازدياد العمران والمرافق:

ولعل ما ذكره ابن بطوطة في رحلته عن القاهرة ودمشق وبغداد خير دليل على أن كثرة العمارة ارتبطت بالأوقاف، فقد قال عن القاهرة: ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة، فتُعد مدين القاهرة من الأمثلة الجيدة والواضحة لبيان أثر الوقف في تطور عمران المدينة الإسلامية، متمثلة في الأوقاف التي وقفها الخلفاء الفاطميين على طلبة العلم والجامع الأزهر، ومن جهة

[16] الشيخ الزرقا، أحكام الوقف، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ـ سوريا، 1947م، ج1، ص 42.

[17] أبو زهرة الإمام، محاضرات في الوقف، ط2، القاهرة ـ مصر: دار الفكر العربي، 1972م،ص 20.

أخرى فقد زاد الاهتمام بالمنشآت الدينية ومساجد ومزارات باعتبارها منشآت موقوفة لله، وبالإضافة إلى هذه المنشآت الخيرية كانت هناك منشآت أخرى تخدم أغراضاً خيرية كالسقايات والآبار وغير ذلك، حيث وقفها أصحابها ليستفيد منها عامة الناس، ويمثل ذلك جانباً تطوعياً سعى إلى إكمال المرافق الهامة سعياً وراء الخير والثواب. بينما قال عن دمشق: " والأوقاف بدمشق لا تُحصر أنواعها ومصادرها لكثرتها... وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس، كما قال عن بغداد: وحمامات بغداد كثيرة، وهي من أبدع الحمامات وأكثرها، وقد كثرت الأوقاف حتى كاد يصبح نصف أرض المملكة العثمانية أوقافاً، كما كانت ثلاثة أرباع هذه المملكة وقفاً على الجوامع والمدارس، ويكفي للتدليل أيضاً على كثرة الأوقاف الخاصة بالمساجد والمدارس في دمشق أن الإمام النووي المتوفي عام 676 هـ، لم يكن يأكل من فواكه دمشق طيلة حياته لأن أكثر غواطها وبساتينها أوقاف[18].

2 ـ تنوع المباني الوقفية ساهم في التكامل بين المجالات الحياتية:

بما أن الوقف قد شمل جميع مناحي الحياة وأثر على كل ما له علاقة بتنمية المجتمع، فقد كان له التنوع الكبير على الجانب العمراني وتصنيفاته، فعرفت المدن الإسلامية أنواعاً مختلقةً من المباني التي تُقدم مختلف الخدمات للمجتمع المسلم لتُساهم في نهضته والقيام بأموره الدينية والتعليمية والثقافية، وأفرز لنا هذا التنوع أصنافاً مختلفة من العمران، ويعمل الوقف على ضمان استمرار أدائها لعملها وتسييرها، ومن المنشآت الوقفية، الخيرية منها والمساعدة ومن أهمها:

2 ـ 1 المباني الدينية: حيث أن الوقف من خلال ارتباطه بالجانب الخيري والديني كان من أولويات الناس وأهدافها في الوقف هي الاهتمام بالمباني الدينية المتعلقة بالعبادة، والمتمثلة في المساجد والمؤسسات الدينية التعليمية، ويُمكننا القول بأن ازدهار الأوقاف كان بسبب حرص المسلمين وشعورهم الديني القوي من خلال المساهمة في إنشاء المساجد وتعميرها لقوله تعالى: {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقم الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين} سورة التوبة: الآية: 18.

ولقوله صلى الله عليه وسلم: (من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة)[19] ولم تكن المساجد مكان لأداء الصلاة فقط، بل كانت مراكز نشر للإسلام، وتعليم المسلمين. وبفضل الأوقاف ظلت المساجد تؤدي رسالتها بعيداً عن الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية.

وفي هذا الصدد يقول محمد شريف أحمد: لقد أدى الوقف خدمةً مشهودةً في مجال تشييد المساجد والجوامع والتكايا وتعيين رجال مختصين لإقامة الشعائر الدينية"[20]، فإذا تم البناء المسجد أو الجامع فرح

---

[18] مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا،من روائع حضارتنا، دار الوراق ـ بيروت، 1999، ص 138.

[19] صحيح مسلك، الجامع الصحيح، ج2، بيروت ـ لبنان، دار المعرفة، 1928، ص 68

الناس به كثيراً بإضافة دور للعبادة وعمارته، وبالإضافة إلى المساجد والجوامع فقد عُرفت كثيراً من المنشآت الدينية، مثل الخوانق والربط والزوايا المختصة في تعليم القرآن الكريم والعلوم الشرعية، منها الكتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم، وهو ما ساهم فيجعل التوسع العمراني يعرف تنوعاً من حيث المباني والمنشآت، ويؤدي بدوره إلى الاجتماع البشري بمختلف الأطياف والأجناس.

كما كانت هناك أوقاف مخصصة للحجاج في كثير من المدن والقرى التي يمرون بها في طريق سفرهم، وبيون لإقامة الحجاج في مكّة بها في فترة الحج، وقد بلغت الكثرة لدرجة أن أفتى بعض الفقهاء ببطلان تأجير البيوت في مكة في فترة الحج؛ لأنها كلها موقوفة على الحجاج"[21].

2 ـ 2 المباني: الثقافية: دون شك أن الوقف اهتم بكل ما له علاقة بالمجتمع الإسلامي، ولم يغفل أي جزئية يكون فيها الصالح العام ويجعله يرتبط بثقافة المجتمع وتوجهاته الدينية والعلمية والثقافية، ولما كان الفقهاء قد أجازوا الوقف على طلبة العلم، واعتبروا ذلك من وجوه البر، أولى الواقفون الأغراض العلمية عنايةً كبيرة، حيث أسهمت أوقافهم في إنشاء مؤسسات علمية في كل المدن والقرى،

فشيدت المدارس بفضل الأوقاف في جميع أرجاء الدولة الإسلامية وأوقفت عليها الأراضي والعقارات، مثل ما فعله صلاح الدين الأيوبي الذي وقف أراض زراعية وبيوتاً وحوانيت على المدارس، ثم استمر المماليك من بعده على هذا النهج، وهو ما حقق نهضة علمية واجتذب الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي"[22].

وقد تطورت العديد من المدارس والمؤسسات التعليمية نتيجةً لدعم الوقف حتى أضحى معظمها في مستوى الجامعات الكبرى، كالقرويين بفاس، والجامع الأزهر بمصر، والمسجد الأعظم بالجزائر، وجامع الزيتونة بتونس، والمسجد الأعظم بطرابلس، وقد صاحب ذلك إنشاء العديد من المكاتب الكبرى أسهم الوقف فيها، من حيث توفير الظروف الملائمة للطلاب من أجل المطالعة والدراسة، وكذا من أجل الحفاظ على الكتب المعروفة من تراثنا المكتوب، فكانت هناك أوقاف المكتبات الكبيرة الملحقة بالمعاهد العلمية أو المساجد، مكتبة بيت الحكمة في بغداد التي أُنشئت في بغداد على يد الخليفة هارون الرشيد، وبلغت ذروة مجدها في عصر المأمون، وهي من منشأ وقفي، لعلها أول جمعية علمية يجتمع فيعا العلماء للبحث والدرس، ويلجأ إليها الطلاب، ومنها مكتبة المستنصر ابن الناصر مكتبة وقفية عظيمة في قرطبة حوت ما يقرب 400 مجلد، ومنها دار العلم في بغداد عبارة عن مكتبة عامة قام بوقفها الوزير سابور بن

---

[20]أحمد محمد شريف، مؤسسة الأوقاف في العراق ودورها التاريخي المتعدد الأبعاد، ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي الإسلامي، بغداد: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1403هـ/ 1983م.

[21]مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، دار الوراق ـ بيروت، 1999، ص 200.

[22]أحمد محمد الجمل، دور نظام الوقف الإسلامي، دار السلام ـ القاهرة، 2006ص 144.

أردشير عام 381هـ، وجعل فيها كتباً كثيرة، ووقف عليها غلةً كثيرة. وقال عنها ابن الجوزي" وابتاع داراً بين السورين في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وحمل إليها كتب العلم من كل فن وسمّاها دار العلم، وكتن فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد، ووقف عليها الوقوف، وبقيت سبعين سنة"[23]، ومنها دار الحكمة، فقد كانت مكتبة في القاهرة سنة 395هـ، وقد جُمع فيها من الكتب ما لم يجتمع لأحد قط من الملوك، هي وقفية وكات تضم أربعين خزانة، وقد تميّز عهد الدولة الموحدية في الغرب(706هـ) بظهور المكتبات الحبسية العمومية. وقد اشتهر منها الخزانة التي حبسها الشيخ أبو الحسن الشاري(ت649هـ) وألحقها بمدرسته بمدينة سبتة"[24] ، كما تم هناك تخصيص أوقاف كدور لفائدة طلاب العلم.

2 ـ 3 المباني الخدمية: كان أول وقف في تاريخ الدولة الإسلامية وقفاً للاستعمال الديني، هو مسجد قباء الذي بناه الرسول صلى الله عليه وسلم، في المدينة المنورة، وبعده جاء ثاني وقف كما هو معروف، وهو بئر رومة للاستعمال الخيري، الذي وقفه عثمان بن عفان رضي الله عنه بتوجيه من النبي صلى الله عليه وسلم ليستقي منها مجتمع المدينة، فقدر روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن قال: (إن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة، وليس بها ماء عذب سُتعذب غير بئر رومة، فقال من يشتري بئر رومة، فيجعل دلوه فيها مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة، فاشتريتها من صلب مالي وجعلتها للمسلمين).

وقد انتشرت العديد من السبل التي ساهم أصحاب الوقف بتقديم خدمات كثيرة منها للمجتمع المسلم، مثل توفير مياه الشرب، وأماكن مستشفيات للرعاية الصحية، حيث عُرفت في التاريخ الإسلامي باسم(دور الشفاء)، أو البيارستانات[25]، وهي من الظواهر البارزة في التاريخ الإسلامي، وقد كان يُقدم فيها للمرضى العناية الصحية اللازمة وفق تنظيم محكم، ومن أبرز المستشفيات في التاريخ الإسلامي: البيارستان العضدي في بغداد، البيارستان النوري في مدمشق، البيارستان المنصوري في القاهرة، بيمارستان مراكش، والبيارستان المقتدري، وهي كلها وقفية كما أنشأ السلطان قلاوون واحداً منها لتقديم الرعاية الصحية للمرضى حتى في بيوتهم[26]،

أما الجانب الآخرفقد ارتبط بالأبنية والأسواق المختلفة لاحتياجات الناس، وتكون هذه المباني قادرة على القيام بمهماتها، ومنها العقارات على نوعيها الاستثمارية ويدخل فيها: (الصناعة والزراعة والتجارة

---

[23]محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص 187.

[24]السعيد بوركبة، دور الوقف في الحياة الثقافية، وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، 1417هـ ـ 1996م، 66/1.

[25]البيارستان(بفتح الراء وسكون السين) يُطلق على مبنى المستشفى، وهي كلمة فارسية مركبة من كلمتين، (بيار) وتعني مريضاً أو عليلاً أو مصاباً، وستان بمعنى مكان أو دار، فهي إذا دار المرضى. أنظر كتاب: أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط2، بيروت: دار الرائد العربي، 1981م، ص 4

[26]خالد المهيدب، أثر الوقف في تحسين مستوى الخدمات الصحية، 1426هـ، ص 17.

والخدمية) ، وليست يُقصد هي المقصود بالوقف لذواتها، ولكنها إنما يُقصد منها إنتاج عائد إيرادي صاف يتم صرفه على أغراض الوقف لمباني أخرى"[27]، إلى جانب الاهتمام بالمرافق العامة التي تُشكل نظاماً عامة يرتبط بالبنية التحتية للمدن العمرانية، مثل المياه والطرق، إقامة القناطر وأسوار المدن وإنارة الدروب[28]، وكذا وقف الأراضي المخصصة للمقابر. فقد عملت الأوقاف على حفر الآبار وإنشاء الأسبلة والحمامات، " تجهيز المدينة بالمياه ودور الوضوء والحمامات وغيرها من الضروريات اللزمة للسكان ، وهذه مسؤولية تحملت الأحباس القسط الأكبر منها، إن لم نقل كلها في بعض الأحيان" إضافةً إلى الأبنية المتعلقة بالجانب الأمني والعسكري، من خلال الأوقاف التي جعلها المسلمون في تمويل الجهاد وتجهيز المجاهدين، ومن أبرز الصور على ذلك(الرباطات) التي تنشر على حدود الدولة الإسلامية وتمثل خط دفاع عنها، وهي مؤسسات إعداد وتدريب للمجاهدين روحياً وبدنياً، وتوفر العدة اللازمة للمرابطين على الدولة، ومنها وقف الخيول والسيوف والأسلحة، حيث أن الجهاد من أكبر القربات التي حث عليها الإسلام،

2 ـ 4 مباني اجتماعية:

كما كانت هناك مباني وقفية اجتماعية موجهة لفائدة الفقراء والمساكين والأرامل، حيث يتم تخصيصها لتلك الفئات تقوية لأواصر التعاون والتكافل والمؤاخاة الذي عرفه المجتمع الإسلامي، فكان الأغنياء منهم لا يترددون في مساعدة هؤلاء من الشرائح الاجتماعية، فمنهم من يوقف منزله على نفسه وذريته ومن بعده، ومنهم من يُوقف داره لتؤجر ويُستفاد من ريعها في الصرف على أوقاف، فإنه كانت هناك أوقاف سكنية خاصة بالفقراء مباشرةً، فقد كان من الأوقاف خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً.

كما أوقف رشيد الدين فضل الله الهمداني في مدينة تبريز داراً للمساكين وكانت تصل ما بين المجمع الرشيدي والمدينة الرشيدية، وكانت تستقبل فقراء المسلمين، وتُقدم لهم الطعام، وكان يصل عدد الوجبات في الوجبة الواحدة إلى مائة وجبة[29]، إضافة إلى وقف الخانات لعابري السبيل والمسافرين، ومساكن للطلبة، والربوع، والمؤسسات ذات الرعاية الاجتماعية، من خلال دور الوقف عند المساهمة في ازدهار المدينة الإسلامية، وازدهرا عمرانها بالمباني والمنشآت المتنوعة، انطلاقاً من الهدف الاجتماعي للوقف

---

[27]منذر قحف، التكوين الاقتصادي للوقف في بلدان الهلال الخصيب، مؤتمر نظام الوقف والمجتمع المدني في الوطن العربي، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربية والأمانة العامة للأوقاف بدولة الكويت، أيار 2003، ص 404.

[28]أوقاف مكانس،

[29]حسين امدياني، مجتمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسة رائدة في الوقف، مجلة أوقاف، العدد1، السنة الأولى: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر 2011م، ص 56.

وكتب الفقه مليئة ومبثوثة بالأحكام المتعلقة به وبأحكامه، هذه كلها شكلت منشآت وقفية ساهمت في التنمية العمرانية والازدهار الحضاري المتكامل من جميع النواحي التي لها ارتباط بثقافة المجتمع الإسلامي.

وقد كان من أهداف الواقف الحفاظ على الأوقاف وعمارتها، فظهر الاهتمام الواضح من جانب الأوقاف بالصيانة الفنية للموقوفات، وهو ما كان يُعرف في الفقه ب " عمارة الأوقاف"، ومن هنا كان معظم الواقفين يشترط في وقفيته، وفي بداية نص الوثيقة في الغالب، أن تتم عمارة موقوفاتهم من ريع أوقافهم حتى ولو استنفذ ذلك جميع الريع، وهو تجسيد للقاعدة" شرط الواقف كنص الشارع"، وكان عدم وفاء ناظر الوقف بهذا الشرط سبباً في عزل الناظر، كما أفتى البعض بأن الواقف إن لم يبدأ شروط صرف الريع بأفضلية الصرف على عمارة الأوقاف يبطل ذلك،[30] فكان لبعض القضاة عناية خاصة برعاية الأوقاف.

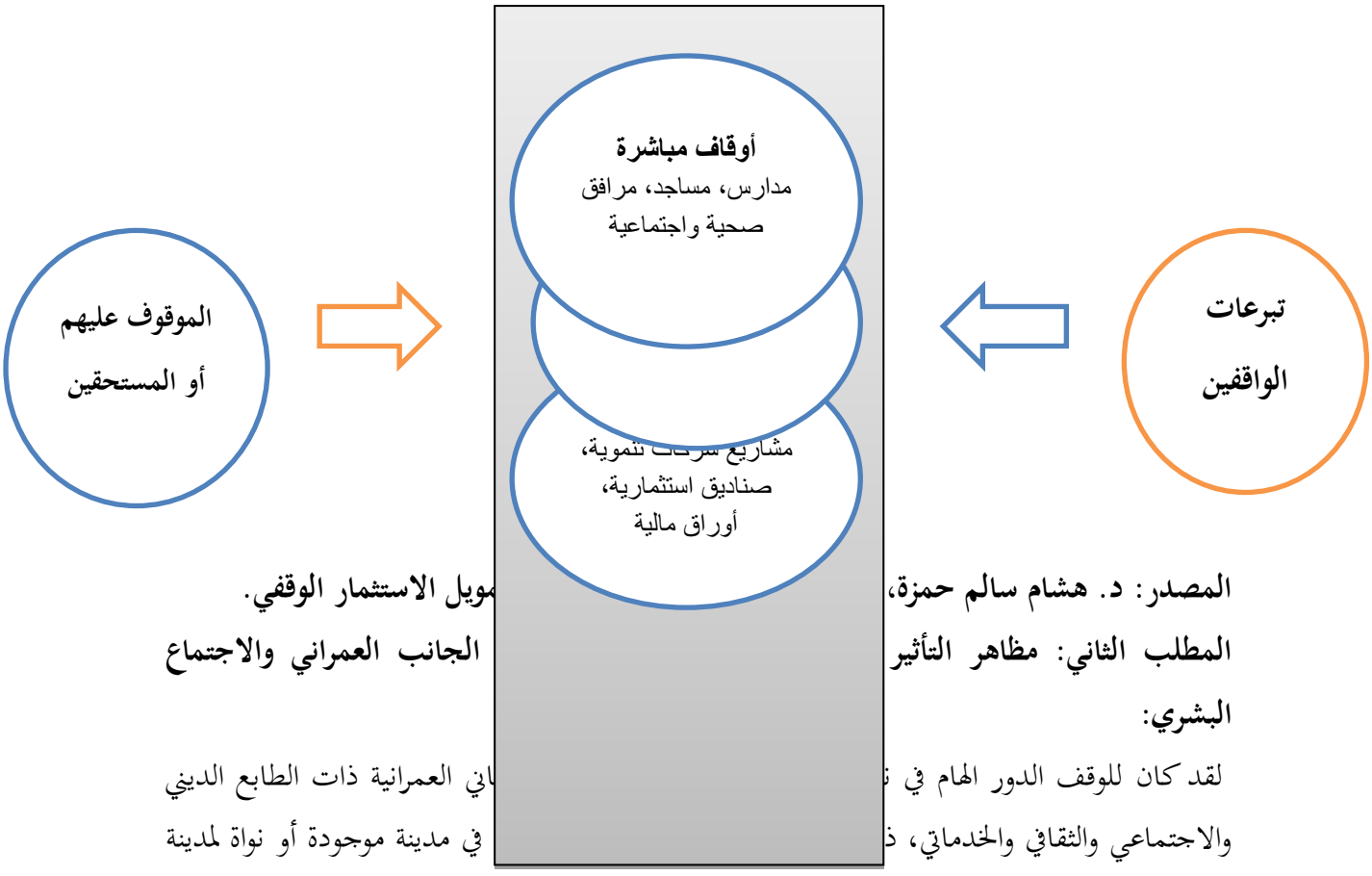

المصدر: د. هشام سالم حمزة، [illegible] تمويل الاستثمار الوقفي.

المطلب الثاني: مظاهر التأثير [illegible] الجانب العمراني والاجتماع البشري:

لقد كان للوقف الدور الهام في [illegible] اني العمرانية ذات الطابع الديني والاجتماعي والثقافي والخدماتي، ذ[illegible] في مدينة موجودة أو نواة لمدينة جديدة، وتبرز هذه الطرفة العمرانية على وجه الخصوص في منطقتي البلقان وبلاد الشام ومصر والبلاد المغاربية.

[30] السيد أحمد ياسين أحمد الخياري، تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، ط4، جدة: دار العلم للطباعة والنشر، 1993م، ص 184.

حيث تطورت العمارة الإسلامية وتدرجت في مراحل تاريخية، ولا يمكن إغفال العلاقة بين الوقف وحركة العمارة والعمران في المدينة الإسلامية وفاعليتها، فقد لعب الوقف دوراً مهماً في تحقيق بيئة عمرانية سليمة وفرة خدمات للمنتفعين بدرجة عالة من الكفاءة والجودة[31]،

وعليه فدراسة تطور العمران والعمارة الإسلامية لا يمكن فصله عن نظام الوقف، فما تذخر به المدن الإسلامية التاريخية اليوم من إبداعات عمرانية متميزة هي منشآت وقفية (جامع السلطان حسن بالقاهرة، قلعة صلاح الدين، جامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس المغرب...)، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد أثر الوقف في صياغة حواضر إسلامية ذات طابع معماري متميز من عدة جوانب هي:

أ ـ أن وضع الجامع في مكان ما وإحاطته بالأسواق والدكاكين الموقوفة عليه والمدارس الملحقة به فرض نمطاً في التخطيط العمراني، فكان تطبيق نظام الوقف في المدن الإسلامية تأثيراً مباشراً عليها، سواء من حيث نمط ونوعية الأبنية الموجودة بداخلها، أم من حيث الوضع القانوني لأراضيها وعقاراتها.

ب ـ بعد إنشاء الأوقاف على اختلافها وتنوع مبانيها، أصبحت محور حياة المدينة الإسلامية وفرضت علاقات ليست في العمارة فقط، بل تعدت إلى الاقتصاد والثقافة والاجتماع[32]، ذلك الذي شكل نظاماً متنوعاً في خدمة مجالات المجتمع الإسلامي.

ج ـ التطور العمراني من المباني والمنشآت الوقفية كان تأثيرها كبيراً على مكونات التراث المحلي والرصيد الحضاري، والذي جعل النموذج المعماري الوقفي أحد أدوات ما أصطلح على تسميته بالتنمية العمرانية المستدامة.[33]

د ـ شكّل الوقف نمواً عمرانياً متراكماً في العديد من المناطق، والتي شكلت النواة العمرانية والاجتماع البشري بصفة متكاملة في المدن الإسلامية، من خلاله عمل الوقف على إعمار مناطق خالية من النشاط التجاري أو الاجتماعي، وساعد على جعلها تجمعات عمرانية بشرية ذات أهمية تجارية عمرانية، من خلال تشييد شبكة واسعة من المرافق والمنشآت تألفت من الجامع أو استراحة لتقديم الوجبات المجانية للفقراء وعابري السبيل، طاحونة، حمام، ودكاكين، إقامات وبيوت للمسافرين، بعدها تتحول هذه النواة العمرانية الجديدة إلى مدن ومراكز جذب للقوافل.

---

[31]نوبي محمد حسن: قيم الوقف والنظرية المعمارية، مجلة أوقاف، العدد الثامن، مايو 2005، الأمانة العامة للأوقاف ـ الكويت، ص 13.

[32]برزنجي جمال، الوقف الإسلامي وأثره في تنمية المجتمع(نماذج معاصرة لتطبيقاته في أمريكا الشمالية)، أبحاث ندوة نحو دور تنموي للوقف، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت، 1993، ص 139.

[33]سعيداني معاوية، الوقف ومسألة التنظيم العمراني في الجزائر: من أجل استخدام الوقف في التهيشة العمرانية المعاصرة، أعمال ندوة الوقف بالجزائر في العهد العثماني: معالجة مصادره وإشكالية البحث فيه، جامعة الجزائر، 1001، ص 97.

المطلب الثالث: الانطلاقة الحقيقية لفقه الوقف وارتباطه بالتأسيس الفقهي من خلال الفتوحات الإسلامية والتمدن الحضاري.

تُعتبر الفترة اللاحقة للعهد النبوي من أهم مراحل مسيرة الوقف، ويمكن أن نطلق عليها مرحلة الاجتهاد والتأسيس المذهبي لفقه الوقف، حيث تبلورت خلالها المعالم الرئيسية لهذا الفقه ضمن عملية البناء الفقهي للمذاهب الكبرى(السنية والشيعية) علة مدى القرنين الهجريين الثاني والثالث، ومن الملاحظ أن التأسيس المذهبي لفقه الوقف، قد تزامن مع الفتوحات الإسلامية، ودخول العديد من الأمم والشعوب في الإسلام، ومنها شعوب الأمة العربية، إذ لم ينته القرن الأول الهجري حتى كانت جميع البلدان العربية قد انضوت تحت لواء الخلافة الراشدة، ومن بعدها الدولة الأموية ثم العباسية، وانتقلت هذا البلدان الأفكار والنظم الإسلامية ومنها نظام الوقف.

وكم وتُشير المصادر التاريخية إلى أن هذا النظام قد حظي بالقبول لدى أهل البلاد المفتوحة[34]، وأن نطاق تطبيقه قد اتسع، ومن ثم اكتسب خصائص وظيفية اجتماعية متنوعة، شهدت ممارسات عملية للوقف، وتأقلمت أهل تلك البلاد بطبائعهم وعاداتهم الاجتماعية، كما اقتضاها التقدم الحضاري والمدني الذي شهدته هذه البلاد بعد دخولها في الإسلام

كما زادت أهمية الوقف وأثره في التخطيط العمراني للمدينة في العصر الأيوبي، والذي كان بداية جديدة لانتشار المذهب السني، وعودته مذهباً رسمياً للبلاد التي كانت تخضع للدولة الفاطمية، فقامت منشآت ومباني بفعل الوقف، فعمل على ترميم مبانيها إذا ما تهدمت واحتاجت إلى إعادة التعمير، فكان الوقف تدر منه ريعاً يُصرف على أرباب الوظائف تلك، ومنذ عصر التدوين صار الوقف من الأبواب الثابتة في جميع كتب الفقه الإسلامي بجميع مذاهبه، ونما هذا الباب وتكاثرت فيه الاجتهادات والاختلافات بين الأئمة والفقهاء حتى شملت جميع مسائل الأوقاف، وتشابكت مع كثير من نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية.

وهكذا كان لنظام الوقف دور في تطور ونمو وديمومة النسيج العمراني في المدينة العربية والإسلامية، فقد أُعتبر الوقف من وجهة نظر التاريخية وسيلة تسيير فعّالة للمصالح والخدمات التي تقوم عليها الحياة الحضرية، كما كانت الأوقاف آلية مناسبة سمحت بتمويل وإدارة مرافق خدمية عامة، ووسيلة لتوفير الإمكانيات اللازمة لصيانة العديد من المباني والتي كانت تُشكل جزءاً هامّاً من النسيج العمراني في المدينة الإسلامية، كما لا يُمكن تجاهل دور الوقف في المساهمة في إعادة تأهيل وصيانة أجزاء من النسيج العمراني[35].

---

[34]أمين محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، 648 ـ 923هـ/ 1250 ـ 1517م، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1980، ص 33 ـ 35.

[35]سعيداني معاوية، الوقف ومسألة التنظيم العمراني في الجزائر، مرجع سابق، ص 103.

خاتـمـــة:

نستنتج مما سبق أن الوقف كان نظاماً حضارياً ومكسباً دينياً ساهم وبشكلٍ كبيرٍ في تشكيل معالم المدن الإسلامية ونسيجها العمراني، وساعد المجتمع الإسلامي على تحسين أوضاعه من كافّة الجوانب الحياتية، الدينية والاجتماعية والتعليمية والاقتصادية والثقافية، بل وحتى فيما يتعلق بالمرافق العمومية لتحسين وضعية المدن، حيث كانت الأوقاف بيئة عمرانية متكاملة من حيث التنظيم العمراني للمباني والمنشآت والاجتماع البشري، وهذا هو التأثير الواضح للوقف من حيث مساهمته الفعّالة في التطور العمراني للمدن الإسلامية، والمحرك الأساسي لتطورها، مما أدى بالمسلمين للتفكير بتفعيله بالشكل الأنسب، حيث تحققت فيه العلاقة من حيث التصور الإسلامي لطبيعة المجتمع والمدينة الإسلامية والمؤسسة الوقفية في آنٍ واحد.

النتائج والتوصيات:

1 ـ التنمية الوقفية كانت شاملة من حيث التطور العمراني والاجتماع البشري، من خلال تحسين نوعية الحياة وتمويل كافة المجالات المتعلقة بالمجتمع الإسلامي.

2 ـ للوقف الإسلامي دور كبير في التنمية العمرانية، حيث كان له الوجه البارز في ذلك، من خلال إنشاء مدن جديدة أو تطوير مدن كانت قائمة وتجهيزها بالمرافق الضرورية والتأثير في نسيجها وكيانها.

3 ـ مساهمة الوقف في النهوض بالجانب العمراني للمدن أدى إلى التنوع من حيث المباني والمنشآت الوقفية، لتشمل جميع مناحي الحياة، وذلك بتخصيص أوقاف للإنفاق المنتظم عليها من أجل ازدهار المجتمع وأوضاعه، ورفع مستوى الوعي لديه.

أهم التوصيات:

1 ـ رغم ما شهده الوقف الإسلامي في الماضي من نهضة وازدهار حضاري وتأثير في حياة المجتمع والمدن والجانب العمراني لها، إلا أنه ومع مرور الزمن تراجع مستوى الأوقاف بشكلٍ كبير ولم يعد له ذلك المثيل، وبالتالي فهو بحاجة إلى استراتيجية جديدة، وإدارة محكمة ليستأنف رسالته من جديد، خاصة مع توفر الإمكانيات.

2 ـ الوقف يتعدى في دوره المجال الديني من خلال بناء المساجد وصيانتها إلى مواجهة الفقر والأمية والمرض، ويُسهم في التعليم والبحث العلمي، وإقامة المدن والمرافق الضرورية العامة، لتطوير المجتمع وتمدينه، فواجب على المفكرين والعلماء والدعاة من تكثيف الوعي والتحسيس بضرورته ودور في حياة الناس ومعاشهم، من أجل إقبال الناس عليه وتشجعيهم على الإنفاق

3 ـ إن النشاط الوقفي، بوصفه نظاماً اجتماعياً إسلامياً تكافلياً، لم يأخذ نصيبه في الوطن العربي حتى الآن، فهو يحتاج إلى مزيد من الاهتمام والعناية، حتى يؤدي الوظائف الاقتصادية والاجتماعية والعلمية بالقوّة والسعة اللتين كان يتميز بهما في الماضي.

4 ـ الاستثمار في الأصول الوقفية وتنمية موارده من أهم طرق عمارة الوقف وتحصيل الريع، من أجل توزيع عوائدها على مستحقيها، والإنفاق على مختلف المجالات الضرورية والمساهمة الوقفية في تحقيق التنمية الاجتماعية.

5 ـ لابد من تكوين هيئة خاصة في البلدان العربية، تكون تابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية قائمة بأمور الوقف وإدارة الأعمال التابعة له، نظّار ومختصون في المجال، ومشرفون على مشاريع الوقف الخيرية، واستقطاب المهتمّون بالمجال لتحقيق الانسجام والأهداف المبتغاة، قصد إحياء سنة الوقف، والمحافظة على هذا المكسب الحضاري الإسلامي وتطويره.

قائمة المصادر والمراجع:

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ صحيح البخاري ـ صحيح مسلم

3 ـ شرح حدود ابن عرفة للرصاع، تحقيق محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م.

4 ـ المغني، موفق الدين ابن قدامة، مكتبة القاهرة.

5 ـ أحمد التلاوي، الدولة والعمران في الإسلام، مركز الإعلام العربي، مصر، ط1، 1436 هـ ـ 2015م.

6 ـ محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 128، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، 1988م.

7 ـ د. عبد القادر بن عزوز، منتدى قضايا الوقف الفقهية الخامس، اسطنبول ـ تركيا، 1432 هـ ـ 2011م.

8 ـ علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، (ترجمة محمد يوسف عدس، دار الشروق، القاهرة ـ القاهرة، 2013).

9 ـ الوقف الإسلامي، مجالاته و أبعاده، أحمد الريسوني، دار الكلمة للنشر والتوزيع القاهرة – مصر.

10 ـ أمل شفيق محمد العاصي، مباني الأوقاف الإسلامية وأثرها في استدامة الأنسجة الحضرية للمدجن التاريخية/ دراسة حالة: البلدة القديمة من مدينة نابلس، رسالة ماجستير ـ جامعة النجاح ـ كلية الدراسات العليا.

11 ـ د. نوبي محمد حسن، الوقف والعمران الإسلامي، دار النشر العلمي والمطابع ـ جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1432 هـ ـ 2010م.

12 ـ الشيخ الزرقا، أحكام الوقف، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ـ سوريا، 1947م.

13 ـ مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، من روائع حضارتنا، دار الوراق ـ بيروت، 1999.

14 ـ أحمد محمد شريف، مؤسسة الأوقاف في العراق ودورها التاريخي المتعدد الأبعاد، ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي الإسلامي، بغداد: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1403هـ/ 1983م.

15 ـ أحمد محمد الجمل، دور نظام الوقف الإسلاميفي التنمية الاقتصادية المعاصرة، دار السلام، القاهرة ـ مصر، ط1، 1428هـ ـ 2007م.

16 ـ السعيد بوركبة، دور الوقف في الحياة الثقافية، وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، 1417هـ ـ 1996م.

17 ـ خالد المهيدب، أثر الوقف في تحسين مستوى الخدمات الصحية، 1426هـ.

18 ـ منذر قحف، التكوين الاقتصادي للوقف في بلدان الهلال الخصيب، مؤتمر نظام الوقف والمجتمع المدني في الوطن العربي، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربية والأمانة العامة للأوقاف بدولة الكويت، أيار 2003.

19 ـ نوبي محمد حسن: قيم الوقف والنظرية المعمارية، مجلة أوقاف، العدد الثامن، مايو 2005، الأمانة العامة للأوقاف ـ الكويت.

20 ـ برزنجي جمال، الوقف الإسلامي وأثره في تنمية المجتمع(نماذج معاصرة لتطبيقاته في أمريكا الشمالية)، أبحاث ندوة نحو دور تنموي للوقف، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت.

21 ـ سعيداني معاوية، الوقف ومسألة التنظيم العمراني في الجزائر: من أجل استخدام الوقف في التهيشة العمرانية المعاصرة، أعمال ندوة الوقف بالجزائر في العهد العثماني: معالجة مصادره وإشكالية البحث فيه، جامعة الجزائر.

22 ـ أمين محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، 648 ـ 923هـ/ 1250 ـ 1517م، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة، دار النهضة العربية، .1980

23 ـد.نور الدين زمام – د. نجاة يحياوي، الوقف والتنمية المستدامة، بحث مقدم للمؤتمر الدولي للوقف بعنوان: الوقف الإسلامي والتنمية المستدامة، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة ـ الجزائر.

24 ـ حسين امدياني، مجتمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسة رائدة في الوقف، مجلة أوقاف، العدد1، السنة الأولى: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر 2011م، ص 56.